الأهرام

المصدر: الحياة

التاريخ: ١٣ يونيو ١٩٩٢

النظام العالمي الجديد امام الرق السياسي من خلال نموذج ليبيا - القذافي وما يشبهه

عبدالحميد البكوش *

■ علمتنا قراءات التاريخ ان الانسان قد استعبد اخاه الانسان منذ زمن بعيد. واذا كانت بداية استرقاق انسان لانسان قد قامت على القوة المادية التي مكنت المسترق (بكسر الراء) من السيطرة الكاملة على المسترق (بفتح الراء) فإن الحضارات اللقيطة سرعان ما اضافت الى مبررات القوة المادية مبررات معنوية تنوعت بتنوع تلك الحضارات، اذ لم يعد الرقيق نكرا كان ام انثى خاضعا لسيده لمجرد تفوق قوة ذلك السيد م وانما ايضا للافتراض بان لذلك السيد حقا عليه، حقا يحميه سياج من الاعراف والقوانين بل حتى قواعد من التراث والقيم. فضلا عن قيام السلطة بفرض احترام حق السادة على الجميع حتى اصبح الرق نظاما مستقرا في فترات معروفة من التاريخ. ولم تفلح في التخفيف من ماسيه ثورات الارقاء في كثير من الوحدات السياسية في العصور الوسيطة. ولعل ثورة الزنج على دولة بني العباس وثورة اتباع سبارتاكوس على اباطرة روما من ابرز الامثلة على تمسك العالم القديم بنظام الاسترقاق.

بانتهاء حروب نابوليون في منتصف القرن التاسع عشر ظهر نظام اوروبي جديد يمكن اعتباره نظاما عالميا لما كان لدول اوروبا في ذلك الوقت من سيطرة على مجريات الاحداث في العالم كله. وتزامن مع ظهور النظام المذكور نضوج في المشاعر الانسانية صاحب انتقال النظم الاقتصادية من الاقطاع الى الراسمالية وانتشار الروح الليبيرالية.

نعم بقي الرق السياسي مزدهرا وقائما اسواقه في كثير من ارجاء عالم البود على قدم وساق، ولعل اكثر تلك الاسواق رواجا اسواق دول العالم الثالث الكئيب.

ان معظم شعوب العالم الثالث خصوصا تلك التي يحكمها عملاء او فرقاء او لواءات يمارس فيها نظام للرق الجماعي السياسي بلا حدود، حيث يفقد الرقيق انسانيته لصالح السيد، واذا كان الشعب في ظل رق الاستعمار يفقد استقلاله ففي الرق السياسي يفقد كل المواطنون حرياتهم وارادتهم لصالح الحاكم الوطني المهيب.

دعونا نلق نظرة على كثير من دول العالم الناسي التي حصلت على استقلالها في اعقاب الحرب العالمية الثانية او قبلها بقليل والتي تزدحم بمندوبيها اروقة الامم المتحدة في نيويورك، ويستهلك حكامها ثلاثة ارباع ميكروفونات العالم وينتجون تسعة اعشار ما يلقى فيها من خطب وما يذاع من تصريحات.

ما الذي يتمتع به المواطن في تلك الدول من حريات؟ واي دور له في اتخاذ اي قرار؟

ان القلة القليلة من تلك الدول تسمح حكوماتها للمواطنين بالحديث في شؤون السياسة او توجيه النقد في حياء الى تصرفات المسؤولين، ولعله يمكنني هنا ان اضع الهند قوسا في جانب وليبيا (الجماهيرية العظمى) قوسا في جانب اخر، وبين القوسين تقع باقي دول العالم الثالث العتيد. فقد عاشت وازدهرت الديموقراطية في الهند منذ استقلالها ونجحت تجربة الديموقراطية الليبيرالية المعروفة بما لا يدع مجالا للشك في امكان نجاحها في دولة نامية، هذا قوس، اما القوس الاخر فهو ليبيا التي يحكمها فرد واحد يسيطر على كل مقدراتها بل حتى على تنفس الحياة فيها. فعلى سبيل المثال لا الحصر يتخذ العقيد معمر القذافي كل قرار في البلاد وتقوم بتنفيذ قراراته لجان شعبية وثورية يختارها

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

من بين اسوا فئات الشعب التي لم تسمح لها ظروفها بان تكون لها قدرة على غير القتل والارهاب، وهو لا يسمح بابداء اية وجهة نظر تخالفه، ويبرر ذلك بانه لا يحكم شخصيا وانما الشعب الليبي هو الذي يحكم نفسه بنفسه. ولذلك فان كل صاحب وجهة نظر مخالفة عدو للشعب وجدير بالشنق او الاغتيال.

ليس هذا فقط بل ان العقيد القذافي يملك باسمه ارصدة دخل ليبيا من البترول جميعها ولا يسمح لاحد ان يعرف ولا لاحد ان يسال عن دخل البلاد او مقدار مصروفاتها، متجاوزا بذلك كل ما كان ياخذ على بعض حكام عرب منذ قرن مضى، وميزانية البلاد عبارة عن قائمة باحتياجاتها يتم وضعها في تجمع اللجان الشعبية ثم يعرض كل وزير على القذافي - ومن حين لآخر - ما تحتاجه وزارته من مال. وبعد ان يشطب العقيد ما لا يوافق عليه يامر بتحويله من حساباته في الخارج الى بنك ليبيا المركزي. وفي ليبيا التي اطلق عليها حاكمها اسم الجماهيرية العظمى، لا يسمح باصدار الصحف ولا تشكيل الاحزاب، فشعار الدولة «من تحزب خان» والانتخابات يرونها عملا متخلفا ولا وجود لقوانين او اوامر مكتوبة، فالقانون ايضا عمل متخلف والبلاد تحكم شفويا من قبل رجل واحد، اما القضاء فهو شعبي يتبع السلطة واما الدستور فهو تقليد رجعي شطبته ثورة سبتمبر الشهيرة وحل محله كتيب اخضر يحوي كلاما غير مفهوم يقول عنه مؤلفه العقيد انه يحوي الحل النهائي لمشاكل البشرية جميعها.

وزيادة في توضيح صورة الحكم الشاذ في ليبيا ازيد فانكر الحظر الرسمي على ذكر اي اسم لمواطن كائنا من كان. ففي الاذاعة كما في التلفزيون كما في صحف الحكومة لا يذكر اسم اي ليبي، وحتى المسؤولون من وزراء وغيرهم يشار اليهم بوظائفهم من دون ذكر اسمائهم. بل ان لاعبي كرة القدم لا تذكر اسماؤهم في اية مباراة مذاعة ويشار اليهم فقط بارقامهم من اول المباراة الى آخرها.

هذه هي صورة القوسين: الهند التي نغار منها وليبيا التي ندعو لها بالشفاء. اما ما بين القوسين فتفع دول كثيرة من العالم الثالث. غير اني وقبل ان استطرد في الحديث اريد ان اعترف بانني لا يمكن ان انكر على حكومات بعض دول ذلك العالم ما تتميز به من انفتاح على روح العصر وما تسمح به لشعوبها من حرية وما تمارسه من احترام لحكم القانون، تلك الحكومات القليلة التي تصبح مناقشة المشكلة معها مناقشة للديموقراطية وللقدر المطلوب تطبيقه منها، اما باقي حكومات العالم الكئيب فالقضية معها ليست بعد قضية الديموقراطية او المشاركة في اتخاذ القرار بل هي قضية انهاء الرق السياسي الذي تمارسه على اوسع نطاق.

فبعد ان طويت خيام نخاسي اسواق العبيد وانزلت اعلام الاستعمار اسرع كثير من حكومات العالم المذكور الى تاميم الرق السياسي وافتتحت له اسواق جديدة، خصوصا في تلك الدول التي يحكمها منذ ان استقلت، او بعد استقلالها بقليل، حكام عسكريون استولوا على السلطة بالقوة مدعين انهم جاءوا لتحرير الشعوب وتسليمها امر مصيرها، غير انهم وما ان استتب لهم الامر حتى تحولوا طغاة لا يرحمون. وبينما يتهم اسلافهم غير العسكريين بانتقاص حرية الشعوب وتزوير الانتخابات والتاثير على القضاء، فإن العسكري الهمام يلغي كل حرية ويوحد بين شخصه وشخصية الدولة، بل يتصرف على انه هو الشعب من دون ان يخفي حزمه وجبروته، فلا راي إلا رايه ولا حرية إلا له وهو الذي يملك مال الدولة وهو الذي يقرر

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

مصير شعبها، وهو الذي يتدخل في أخص شؤون المواطنين حتى تصبح سلطته شريكا في فراش كل منهم. وعلى رغم افتقار ذلك العسكري إلى أية مؤهلات سوى مؤهل القوة والمغامرة فإنه وحده الذي يتخذ كل قرارات السياسة والتجارة والزراعة والصناعة وجميع القرارات التي تتعلق باي شان من شؤون المواطنين، ولم لا؟ فهو القائد المؤمن الملهم العزيز المهاب.

وإذا كانت صورة الحياة في بلد من بلدان عالمنا الثالث النامي بهذا القدر من القسوة والكابة، افلا نعتبر ذلك رقا سياسيا وعبودية سياسية؟ وما الفرق يا ترى بين رق الرقبة الذي يستعبد فيه جسم الانسان، ورق الاستعمار الذي يجرد فيه الشعب من الاستقلال، وبين الرق السياسي الذي يحرم فيه الانسان من صفته كمواطن ويعامل على انه رهينة يجب عليها ان تطيع سيدها طاعة كاملة لا لسبب سوى ان ذلك السيد يملك القوة المادية الغاشمة لفرض سيادته.

إن الكثير من شعوب العالم الثالث يعاني من الرق السياسي قبل ان يعاني من غيبة الديموقراطية. فالحكام العسكريون لا يحرمونها فقط حقها في المشاركة في اتخاذ القرار، وإنما يملكون عليها حق الحياة والموت ويتصرفون حتى في خصوصياتها اليومية وفي شؤون عيشها وتعليمها وثقافتها، بل حتى في علاقات الزواج والطلاق في ما بين افرادها.

ان اولئك الحكام من حملة النوط والنياشين يغوصون في شؤون الشعوب التي يحكمونها حتى العظم بما يحول المواطنين الى رقيق سياسي كامل، بل انه رقيق محروم حتى من ان يباع لسيد اقل قسوة، فهو في العادة ينتقل من يد حاكم الى اخر بالمجان وعن طريق الانقلاب، فهو غنيمة تنتقل من عسكري مضى الى عسكري جديد.

ومثلما كان الارقاء عبر التاريخ وحتى خلال القرن الذي مضى عاجزين عن الثورة لتحرير انفسهم، ولم يتحرروا الا على يد نظام عالمي كان من بين قناعاته مهما اختلفنا على دوافعه ضرورة انهاء الرق وتجارة الرقيق، فإن ارقاء السياسة اليوم في بعض دول العالم الثالث اذا لم نقل في معظمها هم ايضا عاجزون عن ان يحرروا انفسهم من هذا الرق العصري، ولا بد للنظام العالمي الجديد من ان يعمل على تحريرهم بإنهاء سطوة العقداء والفرقاء واللواءات.

ان في ضمير كثير من المهتمين بالشؤون العامة والانسانية في دول العالم المتقدم والتي تشكل هيكل النظام العالمي الجديد قناعات بان الرق السياسي القائم امر مرفوض ويتنافى مع انسانية البشر ومع ثمرة جهود الدنيا كلها من اجل احترام حقوق الانسان. وكثير من حملة الراي من كتاب ومفكرين ومعهم ايضا عدد غير قليل من المشتغلين بالسياسة في عالم اليوم المتقدم يعرفون عن ماساة انظمة الحكم الشاذة وقد دعوا الى مواجهتها في مجال نشاطاتها الدولية، وحان الوقت لان يعلموا ان نشاط تلك الانظمة الدولية الشاذة امتداد صغير لشذوذ حكمها في داخل بلدانها وان على دول النظام العالمي ان تضع ميثاقا دوليا لتحريم الرق السياسي وتجريمه ومواجهة من يمارسونه بالقوة.

لقد صارت نظرية سيادة الدولة نظرية بالية امام استفحال هذا الرق، فالسيادة في حقيقتها لم تعد سيادة حكومة تمثل الشعب بل صارت حكرا لحاكم عسكري يعتبر نفسه هو الدولة وهو السيد الوحيد على شعب من الاماء والعبيد، فاية سيادة هذه نتحدث عن احترامها؟!

ويجب ان لا يسمح النظام العالمي

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الجديد لطاغية فاقع الالوان بان يدعي سيادة لدولة يحكمها، فهو بالمعايير كلها ليس رئيس دولة وانما هو كما نعرف قد خطف شعبا كاملا تماما كما تخطف الطائرات، واهدر مفاهيم الدولة والسيادة والاستقلال كلها، وفاعه الوحيد انه خطف اناسا ينتمي اليهم وكانه من حق الحكام ما داموا وطنيين ان يمتلكوا مصائر الشعوب. واذا كان على النظام العالمي الجديد الا يسمح باستخدام نظرية السيادة ملاذا يتحصن وراءه عسكري مغامر يسترق احد الشعوب فان على النظام الجديد ايضا ان يعترف بالفهم الحديث لمبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول.

فحقوق الانسان امر يهم الانسان في كل مكان على الارض ولا معنى لتلك الحقوق في بلد اذا اهدرت في بلد اخر، ويجب ان يكون من حق اعضاء النظام الدولي العالمي الجديد بل من واجبهم ان يفرضوا على الحاكم المغامر احترام حقوق الانسان في بلاده بكل وسيلة ولو بالقوة اذا لزم الامر، من دون ان يعد ذلك تدخلا في شؤونه الداخلية.

وكما تضامن العالم في فترة من فترات تاريخه الحديث لانهاء رق الرقبة وتحريمه وتجريمه، وكما تضامنت الشعوب لانهاء رق الاستعمار، حان الوقت، ونحن نقف امام بوابة القرن الواحد والعشرين، ان تكون اقدس مهمة للنظام الدولي الجديد عقد ميثاق لتحريم الرق السياسي وتجريمه، والتحالف علنا لمواجهة اي حاكم شاذ يهدر حقوق الانسان ويمارس الرق السياسي من دون السماح له بالاحتماء بنظرية السيادة او الاختباء وراء مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية.

ولعل قائلا يقول إن عدم التمسك بنظرية سيادة الدولة والتخلي عن مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول امر قد يفتح الطريق لسوء استخدام دول كبرى قوتها وقبامها بالانتقاص من استقلال دول صغيرة بدعوى انهاء الرق السياسي والقضاء عليه. وانا اقول إن هذه مسالة يمكن البحث لها عن علاج اخر، ولكن حتى اذا لم يكن بالامكان معالجتها فان ما قد تعانيه الشعوب المسترقة سياسيا من جراء تجاوزات دول كبرى هو اقل بكثير مما تعانيه بالفعل نتيجة السماح لحاكم عسكري مغامر بالاستمرار في الامساك بخناقها. وقد يكون دواء المرض العضال مرا ومؤلما ولكن مذاقه بلا شك اقل مرارة وايلاما من تباريح المرض العضال.

• رئيس وزراء ليبيا الاسبق

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية